ضحايا البشرية

بقلم

ندره نقولا الوف

وهو مجموعة مقالات اجتماعية انتقادية

مصدّر بمقدمة من خط اكتب كواتب هذا العصر السيدة

لبيبة هاشم صاحبة مجلة « فتاة الشرق » بمصر

« امرأة طاهرة
لم تجنِ ذنباً وما اتت
منكراً ظنت الشريعة
إنها جانية فسحقتها بكل
فظاعة . ورجل دنس اقترف
جريمة هائلة فرفعته البشرية »
(ياسمين القروية)

« كل ما في هذه
الارض من الحيوانات
الغير العاقلة تعيش بحرية اما
البشر فقد حرموا ذواتهم هذه
المنحة السماوية وسنوا لانفسهم
الالهية شرائعاً ارضية عالمية »
(وردة الناسكة)

المطبعة الشرقية زحلة (لبنان)

لست اخشى تخطئة الناس لي اذا كنت اعرفني مصيباً
ولا يسرّني تصويبهم لي اذا كنت اعرفني مخطئاً .

« الدكتور شميل »



السيدة لبيبة هاشم

صاحبة ومحررة « فتاة الشرق » بمصر

المقدمة

حبذا العناية التي بسطت يدها لنهضة الاجتماع في هذا العصر واوجدت رجالاً تنزهوا عن الاغراض واطلقت نفوسهم من عقال الأسر فنظروا في الشرائع الاجتماعية نظراً مجرداً عن السخافات بعيداً عن فاسد الاعتقادات فرأوا ما في نظامها من الاعتلال والانحراف وما يقع على الضعيف بسببها من الظلم والاجحاف فضلاً عن ضياع الحرية الذاتية وفقدان الحقائق العلمية فبكوا اسفاً واكتئاباً وربما دموعهم تساقط حباباً وتنحدر على تربة العقول القاحلة فتطفئ اوارها وتزيل حاصل الاوهام فتبيد آثارها وتجعلها صالحة لاستنبات الحقائق قادرة على تمزيق الشرائع المجحفة شر ممزق

وقد كان حضرة اللوذعي الفاضل مؤلف هذا الكتاب في مقدمة من نشطوا للذود عن حياض الفضائل والآداب فنشر مجلة رسائل اجتماعية ضمنها من سديد الآراء ما شاء علمه وادبه ثم جمعها في هذا المؤلف النفيس وتفضل فدعاني لكتابة مقدمة له فطالعت فصوله وانا بين اعجاب واحترام لما تجلى فيها من المعاني الجديدة والافكار المحلقة في سماء الحقيقة المرصعة بنجوم الاحلام فحرت بين ان اثبت ما اوحته الي تلك الروح الطاهرة في آياته او انقل صوت الحقيقة الذي سمعته يتردد بين عباراته وكلاهما بحر واسع يقصر بياني عن الاحاطة به ويقعد بي العجز عن اقتحام غمراته على ان ما

رأيته من انعطاف حضرة المؤلف الى تعضيد النساء، والسعي الى انتشالهن من ايدي الظلم والاستبداد
فقد شجعني على اجابة طلبه مع ما بي من عجز وتقصير ليسعني بذلك ان اقوم ببعض الشكر لما له على
بنات جنسي من الأيادي البيضاء،

لقد غاص حضرة المؤلف عباب الاجتماع ونظر في اماكن السقم منه ومواضع الخلل فبكى
وابكى العيون حزناً على ما يمازج حياتنا الاجتماعية من الاسقام والعلل اجل ان داء
اجتماعنا داء عياء لا يرجى معه شفاء الا ان نربي الرجل تربية صحيحة تبعده عن الاستبداد
الذي فطر عليه ونفهمه حقيقة مركز المرأة بالنسبة اليه بحيث يزدل ما اعتقده حتى الآن من
صغر قدرها وانحطاط كرامتها ونقنعه بوجوب احترام حقوقها وصيانة ذاتها

وليست الصيانة في ان يحجر الرجل على نساء بيته ويضع الحواجز والاقفال دون وصول
الابصار اليهن . بينما انه ينصب اشراك التزلف والتقرب حول سواهن فان ذلك لا
ينطبق بشيء على الشرف الصحيح والصيانة الحقيقية بل هو مجرد حب الاستئثار والانانية
ونتيجة التربية المنحطة والتعاليم الخرقاء التي تذهب باكثر الغرائز النبيلة وتجعل مكانها اخلاقاً
مصطنعة ومبادئ عوجاء مع اننا لو نظرنا الى الطبيعة وتبينا احوال مخلوقاتها من
ادنى رتب النبات الى ارقى طبقات الحيوان لرأيناها تسير بنظامات معقولة اساسها
الواجب الذي قبل ان يعرفه انسان فهي ترأف ببعضها وتعطف على اناثها وتجهد
في سبيل حفظ نوعها بما يجعلها في نظر العاقل ارفع منزلة من السواد الاعظم من الشعوب المتمدنة
التي جنت على نفسها الاعقام كفرانسا مثلاً حيث فشا داء العقم وانحطاط الآداب وعم الاجرام

فمنذ يوم يبلغ فيه الرجل مبلغاً من الارتقاء يعلم معه ان المرأة انما خلقت لغاية اسمى من ان تجيز له معاملتها على تلك الصورة الشنعاء فيجل قدرها ويحترم حقوقها ويكبّ بجعلها تفهم حقيقة مركزها ووجوب الاهتمام باعلاء شأنها فتتحول عن الاهتمام بجمال ظاهرها الى ما هو اكثر اهمية من جمال الصفات والاخلاق بحيث لا يلبث روض آدابها ومعارفها ان يزهر بما ينعش النفوس ويعطر الآفاق

ولا ينكر ان بارتقاء المرأة ترتقي الامة وتشفى سائر امراض الاجتماع التي جسّها حضرة المؤلف باصبع الحكمة فشخّص اسقامها وبيّن ما تحتاج اليه في شفائها من التعاون والتضافر على انشاء الجمعيات وبث التعاليم الحرة في صدور الناشئة بحيث يعرف كل ما عليه من الواجبات كما انه لم يذخر نصحاً لرجال الاحكام والوالدين وارباب الاموال ببسط اكف الرحمة لاغاثة البائسين وانهاض الساقطات والاهتمام بمستقبل المنبوذين من الاطفال الى غير ذلك من انتقاد المضر من عاداتنا واظهار الفاسد من مدنية جيراننا مع انصراف افكارنا الى زخارف الاقوال وقشور الآداب واغفال قدر العلماء والادباء والكتاب وكل ذلك بعبارة اترك للقارئ الكريم الحكم في عذوبة الفاظها ورقة اسلوبها واكتفي بالشكر للمؤلف الفاضل على هذه التحفة السنية التي هي عبارة عن ادمعة طاهرة سكبتها عواطفه على ضحايا البشرية

لبيبة هاشم

اهداء الكتاب

الى

الكاتبة البليغة السيدة

لبيبة هاشم

صاحبة ومحررة مجلة «فتاة الشرق» الزاهرة

سيدتي العزيزة ،

فيكِ وجدتُ رأساً يتقد غيرةً لتضميد جراحات الهيئة الاجتماعية ، وقلباً يذوب شفقةً على ابناء الانسانية التعسة ومنكِ رأيتُ اهتماماً بكتابي فاحببتُ ان اقدمه لكِ عربون اخلاص فتكرمي بقبوله سيدتي

المخلص

ندرة



كلمة

فيلكس فارس

صاحب جريدة « لسان الاتحاد » الغرّاء

اخي ندره

قرأت كتابك الضحايا

ارى في قلمك لساناً فصيحاً ينطق بانين الانسانية المتألمة. وارى فيه قوة كامنة سوف تعمل على درس العلل لتخفيف الآلام. انت اليوم شاعر تصور ما ترى حولك ولكن حينما

تنطبع هذه الصور في ذاتك مع مرور الايام ، حينما يصير في نفسك عالمٌ آخر مستقلًا عن مصدره فحينئذٍ تصير دموعك حكمة وانينك فلسفة

يسرني ان اراك على مدخل عالم الادب وفي جفنيك دمعة . هكذا قد دخل المصلحون الى مرسح الهيئة الاجتماعية

المصلح الذي يولد شاعرًا يبقى دائمًا على فطرته فهو في السياسة والعلم شاعر وكل طريق يتبعها في هذه الحياة تكون دائمًا مناره بشعاع من السماء : حب البشرية

بيروت في ٢٥ ايار سنة ٩١٠

فيلكس فارس

وعويلاً يرنُّ في اذني فظننتُ ان روحاً متمردة أبت ان تخضع لسلطان الموت خرجت من القبور وجاءت لتسرَّ اليَّ شيئاً من اسرار الحياة

ازداد الشبح قرباً . ودنا الصوت

جثةٌ عارية يحملها رجلان . وامرأة ورائهما تُعول وتبكي .
فتاةٌ في ربيع العمر محا الموت ما على وجهها من مسحة الجمال تُدفن في التراب . ووالدتها راكعةٌ تبلُّ الضريح بدموعها وتندب ابنتها وتقول :

رحماك يا رب ! أَمَا تشفق على فؤادي الذي اذابته صروف الدهر . حتى تزيد على مصائبي ما لا اقدرُ على حمله ؟ اما يكفيني يا ربِّ موت زوجي وولدي الحبيب حتى تحكم الآن بفقد آخر شخص احببته في هذه الحياة ؟

آه يا ياسمين . يا ابنتي الحبيبة كيف فرّق البينُ بيننا وابعدكِ عني ؟ . انتِ ايتها الزنبقة الطاهرة التي لم تكد تنشر اريجها الذكي مع نسمات الفجر حتى امتدت اليها يدٌ اثيمة فاذبلت نضارتها

آه يا ابنتي ! ما اقسى الموت وما امرّ الحياة !

كنتُ آمل ان اتعزى بوجودكِ . واسلو فراق والدكِ وشقيقكِ فاختطفكِ ذلك الذئب الضاري من صدري وتركني وحيدةً لا مجيرَ لي ولا معين غير دمعي السخي !

كنتُ آملُ ان اراكِ عروسةً وأمتعُ نظري برؤيتكِ فجاء ذلك النمر الضاري – ذلك الامير الكهل – وسلبني اياكِ وجعلكِ عروسة الموت !

ربّي ! إن كنتَ رحومًا فانصف هذه الشهيدة من ظالمها .

ربّي ! إن كنتَ قادرًا فأرنا قدرتك !

ربي ! إن كنتَ عادلاً فاظهر عدلك وانصف هذه الشهيدة !

قالت هذا ووقعت مغشياً عليها . فحملها الرجلان بعد ما اهالا التراب على ضريح الفتاة وغرزا صليباً خشبياً فوقه ورجعا من حيثُ اتيا

xxx

وقفتُ اذ ذاك امام القبر . وهول المشهد يُغشي بصيرتي وخيال الموت يتراءى امام عيني وعويل العدم يرنُّ في اذني .

وقفتُ وافتكرت . فانهمر من عيني دمعةٌ لم اعرف معنىً لها غير انها تلك الدمعة التي جئتُ لاذرفها بين القبور

***

فتاةٌ بالامس كانت في احضان الحياة تتمتع بالوجود فاصبحت اليوم في قبضة الموت تناجي العدم .

فتاةٌ كانت رجاءً لارملة فقيرة تساعدها على مشقات هذه الحياة فهبت عليها أرياح المنون واطفأت نورها . . .

بالامس كانت تسير كما نسير نحن فاين هي الآن . . . والى اين سارت ؟ . . . ما وراء هذه القبور . أخلودٌ ام فناء ؟ . والى اين ذهبت روح تلك الشهيدة أ الى الخلود ام الى الفناء ؟ . .

ظلت هذه الافكار تجول في مخيلتي والدموع تجول في عيني حتى سمعتُ وطء اقدام بقربي فنظرتُ واذا بشابٍ في ربيع العمر يسير وهو ساترٌ وجهه بثوبه . وما لبث حتى

تقدم نحو ضريح الفتاة وركع على حافته ورفع يديه نحو السماء واخذ يصلّي .

مرّت الساعة . والشاب على تلك الحالة يداه مرفوعتان نحو العلاء . والدمعة تترقرق في عينيه . ولمّا همّ بالذهاب تقدمتُ نحوه فأجفل وارتعش خوفاً اذ ظنني احد رجال الامير وقال لي متنهداً :

إفعل ما شئت . إرفع امري اللامير او فاقتلني فخيرٌ لي ان اموت من ان اكون عقوقاً ولا اذرف دمعة على ضريح التي قضت شهيدة حبي .

فسكّنتُ روعه وقلت له : لا تخف يا اخي فالدمعة التي تتساقط من مقلتك الآن قد تساقطت من عيني قبل هذا الاوان . والشواعر التي تتحرك في صدرك تجول في صدري . ولكن اخبرني كيف ماتت شهيدة حبك . ولماذا حملوها عارية الى الضريح ؟ . . .

فزفر زفرة خارجةً من اعماق قلب مجروح وقال : ان اول عاطفة حبية انبعثت من قلبي بعد حب والدي كانت

لهذه الفتاة

احببتها وقلبي لا يحب سوى الحب . وملكتها فؤادي وكل عواطفي . وانا لا املك غير قلبي وعواطفي

كنتُ اغار عليها من نظراتي . واخاف عليها من هبوب النسيم . كل جمال الطبيعة عند نظراتها لا شيء . وكل محاسن الدهى عند لفتاتها عدم . نما حبها في قلبي حتى اصبح شغلي الشاغل . ولمَّا ترعرعنا وشببنا طلبتها من والدتها لتكون رفيقة حياتي فما بخلت بها عليَّ لعلمها بما في قلبينا من الحب الطاهر

لكن وا أسفاه ابى الدهر الاَّ ان يجرعنا كأساً امرَّ من العلقم ويبدل صفاء سرورنا بغيوم الاحزان والهموم . فانه بينما كانت حبيبتي « ياسمين » صباح يوم من ايام الربيع الجميلة خارجة للنزهة في احد السهول ابصرها امير البلد — ذلك الكهل النجس — فاعجبته نضارة شبابها . وأُصيب بسهم جمال عينيها . وعند المساء ارسل احد رجاله وطلب يدها من والدتها

مسكينةٌ تلك المرأة لم تجسر على الرفض بل قبلت طلبه مضطرة . وفي اليوم الثاني كان الامـير يحتفل بقرانه على « ياسمين » .

منذ ذلك اليوم تحوَّل النور في عيني ظلاماً . واصبحت حياتي نزاعاً اليماً

كيف ضحيتُ عواطفي على هيكل حبّها لجفاء ذلك الوحش الضاري ونزعها من قلبي . أأقتله ؟ . . . ام اقتل نفسي واستريح من شقاء هذه الحياة . نعم فلأمت انا فذلك خيرٌ لي . ولكن قبل هذا يجب ان ألقي عليها نظرة الوداع . يجب ان اسألها المغفرة

كتبتُ لها بطاقة وسألتها ان توافيني ليلاً الى الحديقـة لان في قلبي مكنونات أُحبُّ ان ابثهـا اياها . ولمَّا دنت الساعة المعينة ذهبت الى المكان المذكور واقصى مرامي ان اشاهد مالكة فؤادي وحبيبتي . فلمَّا وصلتُ الى هناك ابصرتها جالسة على جذع شجرة . واحمرار مقلتيها ينمُّ عمَّا في قلبهـا من اللوعة والحسرة

اقتربتُ نحوها ولم اكد اجلس بقربها وأقبّل يدها البيضاء حتى دخل الامير فجأةً ومعه ثلاثة من الجند — كأننا كنا على ميعاد من الحضور سويةً — ولمّا رآني صرخ صوتاً عالياً سُمِع في جميع الانحاء المجاورة وامر الجند بالقاء القبض على « ياسمينتي » لانها زانية تغازل حبيبها

امّا انا فتركوني ولم يمسني احد بسوء . لاني رجل ،

والبشرية الظالمة والشريعة العمياء تحكم على المرأة اذا سقطت

وكان سبب سقوطها الرجل . اما هذا فلا تسأله عن شيء ،

كأن الرجل خُلِقَ من جبلة ارفعُ من جبلة المرأة ، كأنّ ليس للمرأة نفساً تشعر وتتألم . اوكأنّ الرجل لمجرد كونه

رجلًا اصبح الهاً يحكم بالمرأة ويستبدُّ بها ويسلبها طهارتها وعفافها ويرميها في اقصى دركات الذل والهوان فلا يُحاسب ولا يُحاكم

آه من البشر ما اقسى قلوبهم وما اظلمهم ! . .

المرأة الضعيفة التي يجب ان تُرحم وتُعامَلُ بالعدل والرفق اذا اتت عملاً ـ هو واجبٌ يدفعها اليه قلبها الطاهر ـ يحسبونها خاطئة جانية . فيزجونها في ظلمات السجون ويحتقرونها

والرجل القوي الذي يقترف الجرائم العديدة وينزع قلب الفتاة من صدرها ويلقيه على فراش الدعارة والهوان يُكرمُ ويحترم من جميع الناس كأن تلك الافعال الشنعاء تزيده اعتباراً .

وهكذا يا اخي زُجت حبيبتي في الظلمات . تقاسي الآلام والعذابات . وبعد عدة ايام تلاشت انفاسها الطاهرة وذهبت الى السماء لتشكو للعدل تعالى ما لاقته على هذه الارض من الجور والظلم ولتقف امام الديان الرهيب وتسأله الرحمة من قاتليها .

وليت الامير اكتفى بأنه كان السبب في اذبال زهرة شبابها بل أمر بان تُحمل عارية الى القبر .

عارية يا اخي حملوها . وفي الشوارع ساروا بها وكان الناس يصفقون عليها ويلعنونها ويشكرون الامير على ما فعله

الى القبر . الى الوحشة . الى الانفراد . الى الظلمة اخذوها . . . آه يا حبيبتي ! ! ! . . .

قال هذا وكمن أُصيب بالجنون هرول بين القبور وهو ينادي الارواح ويستمطر نار السماء . ولما ابتعد عني سمعتُ الصدى يردد هذه الكلمات :

ايتها البشرية الظالمة . ايتها الشريعة العمياء .

قتلت حبيبتي

xxx

عند هذا وقفتُ وقفة المتأمل . وألقيت نظرةً على القبر الذي ضم جسم الفتاة الطاهرة . فرأيتُ كأن ذلك الصليب الخشبي الذي يمثل لنا ظلم البشرية وعماء الشريعة الانسانية يسألُ من السماء العدل للشهيدة التي قضت جوراً وظلماً . كأن تلك الخشبة السوداء المغروزة على الضريح تصرخ وتنادي : ظالمةٌ انتِ ايتها البشرية ! وعمياءٌ انتِ ايتها الشريعة !

امرأةٌ طاهرة لم تجنِ ذنباً ولا اتت مكروهاً . ظنت الشريعة إنها جانية فسحقتها بكل فظاعة ، ورجل دنسٌ اقترف

منكراً هائلًا فرفعته البشرية ...

شابـةٌ بريئة اتبعت فؤادهـا وأحبّت انساناً — وليس الحب بجريمة — فوصمتها الانسانيـة بالزناء . وامير مرتكب مجرم انتشل الفتاة من حبيبها وتركه يقاسي عذاب الموت — عذاب الفراق — فقال البشر ما أعدل هذا الامير ؟ ...

اذا كانت تلك الشهيدة زانية كما تدعون — وهـذا بعيدٌ عن الحقيقة بعد السماء عن الارض — وفعلهـا قبيح فمن صيّر قتلها جميلًا ؟ ...

ايّة شريعة جائرة تأمر بجعل سلب الارواح فضيلة ؟ ..

ايّة انسانية بربرية تكرّم الامير ولا تحرقه بالنار عندما يُعري فتاةً ويأمر بأن يُجالَ فيها في شوارع المدينة ؟ ...

« أنقابلُ الشر بشرٍّ اعظم ونقول هذه الشريعة ؟.. ونقاتل الفساد بفساد أعم ونهتف هـذا هو الناموس ؟ .. ونغالب الجريمة بجريمة اكبر ونصرخ هذا هو العدل ؟ .. »

إرحموا المرأة ايها الناس ولا تظلموها !

الشريعـة التى تعلّم الفساد فاسـدة فاعرضوا عنهـا وقاوموها بكل عنف . والناموس الذي ينشر الشر شرير فانبذوه ولا تخافوا من اهراق دمكم في سبيل محا كسته .

انظروا الى داخليات الامور ولا تغتروا بظواهرهـا . القبورُ المكلّسة التى جدرانهـا بيضآء وداخلهـا نتانة و بلاء ابتعدوا عنها !

xxx

أخذت الشمس تتوارى بحجابها كأنها متعبة
من مشاهدة الفظائع الوحشية وعدتُ
الى البيت . وفي العين دمعة
وفي القلب لوعة

.....

الطفل اللقيط

ارحموني يرحمكم الله

امام المعبد . هناك حيث تناجي الارواح خالقها ويُسبّح ابناء الارض مكوّن العالم الاعظم . ابصرتُ طفلًا صغيرًا ملفوفاً بقماطٍ ممزّق يبكي ويُعول والناس من حوله ينظرون اليه نظرة الاشفاق . وسيماء التأثر والاندهاش بادية على وجوههم

وكما يفعل السهم في الصدر هكذا فعل صراخ ذلك الطفل في قلبي واثّر فيَّ تأثيرًا شديدًا

دفعني حب الاطلاع وتقدمت لأشاهد الطفل عن قريب فرأيتُ منظره يُبكي وابصرتُ ورقةً صغيرةً معلّقةً في عنقهِ ومكتوباً عليها هذه الكلمات :

إرحموني يرحمكم الله

قرأتُ هذه الجملة وأعدتُ قرأتها وتمعنتُ فيها كثيراً فانطلقت نفسي في فضاء الخيال وتمثل امامي صراخ ذلك الطفل كبخور المذابح يشقُّ الفضاء ويتصاعد الى اعالي السماء ليقف امام العدل طالباً منه الرحمة لمن يرحمونه . . . فقلتُ اين مَن يرحم ؟

ولم اكد انهي هذه الجملة حتى رأيتهم حملوه وساروا به . وانا لا ادري الى اين

عندئذٍ شيّعتهم بنظري وعدتُ من حيث اتيت وفي الصدر ما فيه من عوامل الحزن والاسى على ذلك الطفل المسكين الذي قسا عليه قلب امه فتركته وحيداً شريداً. يبكي ويُعول

ولكن ياترى مَن هو ذلك الطفل. ومَن هي أُمهُ ؟ سؤالٌ يصعب عليَّ الجواب عليه . ومهما يكن من امره فلا بدّ من كلمة اقولها فيه : والرجل من يدرك من نفسه

لا بواسطة غيره

فذلك الطفل إمّا ان يكون ابن الشقآء . ووالدته بائسة حكم عليها الفقر بطرح فلذة كبدهـا في الشوارع لانّ ليس لديها ما تقيته به

واما ان يكون ابن الخطيئة . وامـه تلك المرأة الساقطة التى سطت عليها الذئاب البشرية الضاريـة . وسلبت منها شعار الطهارة والعفاف . فتركت ثمره خيانتهـا في الطرقات لئلا توصم بالعار والشنار

وعلى كلا الحالين فذلك الطفل هو ابن الانسانية . وأحد افراد الهيئة الاجتماعية . واذا كانت امه وهي انسانة قد دهمها الفقر أو اغوتها المدنيـة . أفليس من العـدل ان تغوثه الانسانية . وترحمه المدنية ؟

وليت شعري من هي الانسانيـة ؟ . . . أليست جميع الناس ! ومن هي المدنية ؟ أليست الحكومة !

فعلينا اذن وعلى الحكومة خصوصاً ان ننظر الى هذا الامر

بين الرحمة والشفقة . ونعيره جانب الاهتمام . اذ ليس من العدل ان يُترك ذلك الطفل عرضةً للطوارئ . وليس من الانصاف ان يموت في الشوارع اذا اختفى والداه وهو لم يجنِ ذنباً

xxx

لقد سرنا – نحن الشرقيين – شوطاً بعيداً في تقليد الاجانب بما يعود على البلاد بالخراب والدمار . امَّا ما يُرجى منه التقدم والفلاح فقد اعرضنا عنه كشحاً ورمينا به عرض الحائط . وليتنا في ذلك نُدرك الحقيقة فنسعى لتقليد الامور التي تعملُ على رقيِّنا وتقدمنا . ونبذِ كل ما يجعلنا موضوع حقارة في اعين ارباب التمدن . فنصبح اذ ذاك شعباً راقياً وزيّنُ تاريخنا بصفحة افتخار لا تمحى الى الابد

فإلى تقليد ما يفيد يا ابناءَ وطني وجِّهوا انظاركم ! والى ما يعود على الوطن بالخير والفائدة يا قوم حوّلوا اهتمامكم !

ان المستشفيات العمومية والملاجئ الخيرية في البلاد المتمدنة تفوق العد . فلماذا بلادنا فقيرة ليس فيها الا النزو

القليل من المستشفيات والملاجئ ؟...

ان الاجانب يشعرون بان شر المصائب مصيبة ذلك الطفل الذي لا يقدر ان يدافع عن نفسه ولذلك يجودون بما يحفظ حياته من الخطر . فلماذا لا نقتفي اثرهم ونجود بقليل من المال لإنشاء الميatم ؟

ان الحكومات هناك تنشئ المدارس المجانية الاجبارية لتعليم هؤلاء الايتام ما يجعلهم في المستقبل رجال اجتهاد وعمل . فلماذا حكومتنا لا تهتم بهذا الامر ؟

. . . .

إي بني وطني ان ذلك الطفل اللقيط . اذا لم نعمل لانتشاله من وهدته فسيكون في المستقبل حجر عثرة في سبيل البلاد ويتعذر علينا بعد ذلك ان ننجو من اخطاره

فاتحدوا اذن وأقيلوا عثرته مع اخوانه الكثيرين
الذين يسيرون في الشوارع يطلبون الاحسان
وارحموهم . يرحمكم الله ويقيل عثاركم

«سوسن البائسة

زهرةٌ في ربيع العمر لم تكد تتفتح لنسمات الصباح حتى فاجأتها لفحات المنون السامةً فأودت بنضارتها • وغصنٌ رطب لم يكد يتبسم لنور الفجر حتى انقضت عليه صاعقة الجور فأذبلت غضاضته

×××

عند المسآء وقد نفخ الريح وأمطرت السماء — كأَنها تبكي ابناء الارض البؤساء — جلستُ في الشرفـة المطلّة على الشارع العمومي واخذتُ اراقب المارّة ، واتأَثر من المنـاظر المحزنة التي كانت تشاهدها عيني في تلك الساعة

وليت شعري ما اكثر هـذه المشاهد المؤثرة التي تُبكي الجوامد وتحرّك القلوب ، وما اكثر البائسين الذين يملأون الفضاء بتنهداتهم ، ويأكلون كسرهم السودآء ممزوجـة بدموع

اليأس . فمن طفل يتيم لم يلاقِ في هذه الحياة سوى البؤس والشقاء يسير واعضاؤه تتقضقض برداً وهو يمدُّ يده ليطلب الاحسان فلا يسمع سوى الفاظ فارغة لا تجديه نفعاً ولا تسكّن آلآمه

ومن فتاةٍ لم تزل في بهجة العمر قد ضحّت صباها على هيكل حب الوالدين ومشت في الشوارع تنتجع ما تسدُّ به رمق شيخين مسنّين فلا تجد سوى شبَّانٍ خلعوا عذار الحياء اقتربوا منها ليساوموها شرفها بالدرهم والدينار . . . . ولكنَّ الذي حرّك اوتار فؤادي واستنزف من عينيَّ الدموع منظر امرأةٍ وخطها الشيب كانت تسير وشعرها منسدل على كتفيها وهي تنادي بصوتٍ كلُّ ما فيه يدلُّ على الحزن والألم آه يا بُنيَّتي المحبوبة ! ! !

فلم اشعر اذ ذاك بنفسي الأ وانا سائرٌ وراءها اتبعها الى حيثُ تسير كأنَّ في صوتها الحزين كهربائية تجذبني حتى وصلتُ امام بيتٍ ضئيل الضوء تنبعث منه اشعة ضعيفة فتغالب الظلمة السائدة فيه وتنيره حتى يظهر مشهد يفتت القلوب . . .

فتاةٌ شاحبة الوجه ناحلة الذراعين متوسدة على فراش يدلُّ على عوزٍ مدقع وقد حوَّلت وجهها الى الحائط كأنها وجدت بين خلاياه القاسية قلوبًا ارق من قلوب البشر أو كأنها تختبئ من مظالم العالم . فلما شعرَت بحركة في الباب وسمعت تنهدات والدتها التي كانت تجتهد لاخفاء دموعها فيُظهرها الحزن بالرغم عنها حرّكت رأسها والتفتت الينا فبانت عيونها الذابلة التي كانت كأنها مكحولة بالتعاسة وبصوت الموجع المتألم قالت :

أين هو يا أُمّاه ؟ هل جاء معكِ ؟ . . . هل رقَّ قلبه القاسي واتى لأنظره نظرة الوداع ؟ . . .

ولمَّا رأَت الفتاة بأن والدتها لم تحر جوابًا بل ظلت صامتة لا تنبس ببنت شفة ارجعت رأسها الى مكانه وردّدت هذه الكلمات : آه ما اقساهُ يا الهي ! وما اظلم البشر !

عند ذلك لم اتمالك نفسي عن البكاء وعن ذرف دمعة الشفقة على هذه البائسة التي لم اعرف من حياتها التعسة غير ما شاهدته في تلك الليلة . ولكن أبت عواطفي ان ارجع من

حيثُ اتيت بدون ان اعلم شيئاً عن سبب حزنها وتعاستها لعلّي اقدر ان اسكّن آلامها واعزّيها . فتقدمتُ نحو والدتها وبلهجة المشفق سألتها :

بالله يا هذه . هلّا قلتِ لي لماذا تبكي هذه الفتاة ؟ أو ماذا ألمَّ بها حتى اصبحت في هذه الحالة التي لا يُرجى منها خلاص . ان قلبي كان يتقطع لوعةً عندما كانت تتكلم . فمن هو هذا الذي كانت تنتظر قدومه ياترى ؟ ..

وكأن الفتاة في تلك البرهة سمعت كلماتي وشعرت بأنها صادرة عن قلبٍ يتوجع لاوجاع البائسين ، ونفسٍ تتألم لآلامهم فرفعت رأسها الذي كانت لا تقوى على تحريكه ونظرَت اليَّ بعينين كانتا محدقتين بعالمٍ غير منظور وبصوت خنقته العبرات والتنهدات قالت :

رفقاً ايها الشاب ! لا ترد آلامي ولا تضرم في نفسي ناراً جديدة لئلا أموتُ قبل ان اشاهد ظالمي الذي تحبُّه نفسي وانظر اليه نظرةً هي كل ما آمله في هذه الحياة وقبل ان تنفصل نفسي عن هذا العالم الشرير واذهب الى عالمٍ تسكنه

الارواح ولا يقلقها ضجيج الناس

دعني اموت وخياله نصب عيني فلعله يرقّ لحالتي ويلفظ من فمه العذب كلمة الحب

آه يا حبيبي يا قاتلي ! ما ارحمك واظلمك !

أَمَا يحنُّ قلبك على هذه المسكينة التي ملَّكتك فؤادها وسلّطتك على مالها ونفسها ؟... أَمَا لك شواعر تتأَثر لبلواي ؟ أَمَا كنت تقول لي بأَني أُحبكِ « يا سوسن » وكل عاطفةٍ من عواطف فؤادي تضرب على وتر حبكِ والهيام بكِ

اتتركني الآن بعد ان استنزفتَ كل ما تملكه يدي ويد والدتي المسكينة ؟...

اتتركني الآن بعد ان اشبعتَ اميالك من جسمي وتطرحني على فراش الذل والهوان كامتعة لا حاجة لك بها ؟ اين العهد ؟ . . . اين اليمين ؟ . . . آه يا ظالم ما اقسى فؤادك ! كيف خدعتني واجبتَ غيري . . .

رحمتك يا الهي من مظالم البشر ، فقد يئست نفسي الحياة وتاقت الى الموت !

رحمتك يا الهي لا تغفل عن الاخذ بناصر الحق ومجازاة هذا الذئب الضاري بما يستحقه من القصاص العادل ! انزل عليه يا الهي من سمائك نارًا وكبريتاً وامحهِ من هذا الوجود فقد كان اصل دائي وسبب بلائي . . . رحمةً ! رحمةً يا الهي .

ولكن . . لا . . عفوًا يا حبيبي يا قاتلي فقد طار صوابي ولم اعد اعي ما اتكلم ! عفوًا ولا تحقد عليَّ فان قواي قد خارت ولم اعد قادرة على الكلام . . عفوًا . . عفوًا

قالت هذا – وانقطع صوتها – واختلج جسمها ووقعت في سبات عميق من تأثير الحمَّى . واذ لم يعد بامكاني ان اشاهد ذلك المنظر المحزن خرجتُ وخيال الفتاة يتراءى امام عيني ، ونبرات صوتها ترنُّ في اذني ولمَّا دخلتُ الى غرفتي القيتُ رأسي على الطاولة واستغرقتُ في البكاء

بكيتُ لاني رأيت في تلك الفتاة مثالاً لكثيراتٍ من بنات وطني اللواتي عليهنَّ تتوقف الآمال – ومنهنَّ يُرتجى تقدم البلاد

بكيتُ لاني شاهدتُ بأم العين تلك الجناية الفظيعة

التي يأتيها الشبان بخديعة الفتيات — وطرحهنّ على فراش الدعارة والذل

بكيتُ لان التربية، وتقويم الاخلاق في بلادنا لا تزال في تأخر وانحطاط . اذ لو كانت اخلاقنا مقوّمة لما كنا نرى الشاب يسلب الطهارة والمال، ويسير في الشوارع مفتخرًا مسرورًا كأنه لم يأتِ امرً فريًا ينافي الشرف والاداب . او كأنّ صراخ تلك الفتاة الذي بلغ اعالي السماء لم يكن في اذنيه الا صوت طرب وانشراح

فهذبوا ابناءكم ايها الاباء والامهات فهذا خير ما تفعلونه في هذه الحياة

واحذرنَ الذئاب الضارية ايتها الفتيات السذّج لئلا يسطون عليكنّ ويسلبكنّ اعز ما لديكنّ .

واتقوا الله فيما تفعلون ايها الشبّان فحرامٌ خديعة المرأة الضعيفة . .

xxx

بعد اسبوعين وقد زقزقت عصافير الحقل منشدةً

اغنية الربيع . وُضعت « سوسن » البائسة في تابوت
خشبي وحملت على كتفي رجلين فقيرين ودُفنت
في قفر موحش. ولم يشيع جنازتها لانها بائسة
مصابة بداء السل سوى والدتها الثكلى
وشاب يحب البؤساء – وقد
هبطت عليه الشفقة
من السماء

جرح عميق

يا اخي .

اكتب اليك والساعة تنبيء الغروب . والريح يصفرُ في الشوارع . واسواق المدينة مغطاة بالثلج . والدمعة تجولُ في عيني

انا حزين يا اخي ولا ادري لماذا ؟ . . .

اجولُ في الشوارع . احادث الاصحاب . اطالع الصحف والحزن لا يفارقني والدمعة لا تجف من عيني

عبثًا احاول ان اسلو مشقّات هذه الحياة . و باطلًا اجهدُ نفسي لان اكون سعيداً . لان الحياة — كما يقولون — دمعة وابتسامة واظن بأن زمن الدموع لم يمر بعد

في القلب يا اخي فراغ لا يملئه الا الحب . تلك القوة التي تجعل الشقاء سعادة . والسعادة شقاء . وقد فتشت كثيرًا

عن الضالة التي انشدها فلم اجدها . لان نفسي تطلب ما لا يوجد تطلب صديقاً مخلصاً . . . والصديق المخلص يا اخي اندرُ من النادر

من يقول لك ان كل عواطفي تحبك وانا لك . قل له انت كاذب — ولو زعل منك — فقلبُ الانسان كقطعة حديد والمال مغنيطيسه

طالما كيسك ملآن . طالما اصدقاؤك كثيرون ! . . . (١) ويا لتعاسة حظك وسوء طالعك . اذا فرغ الكيس فأنك تصبحُ عندئذٍ فريداً لا صديق ولا حبيب . لا معزي ولا مؤنس بينما كنت قبلًا لا تجد وقتاً كافياً لمعاطاة اشغالك — لان زيارات الاصدقاء الغير المنقطعة كانت شغلك الدائم — فالآن انت وحيد . اذ ابصرت احد هؤلاء وحييته فلا يتكلف برد التحية . . .

آه يا اخي لو تدري كم احتقر الرجل الذي يحبني لاجل

(١) « فما غير جيبك من صاحبٍ اذا ما دعوت أجاب الندا »

مالي او يصاحبني اكراماً لغيري . إنه عدوي الألد

افضلُ لي ان اعيش في البراري بين الذئاب والنمرة .
بين الثعالب والقنافذ . بين الحيّات والعقارب من ان اعاشر
الناس

هنالك اعرف صديقي من عدوي واميزُ بين من
يحبني ومن يكرهني وهنا لا اعرف شيئاً من ذلك

كلهم اصدقائي . كلهم يهمهم امري . ولكن اذا غضبت
عليَّ السماء وُبليتُ برزيئة . فكلهم بطرس اذ انكر سيده

هذا العالم يا اخي كله اسرار غامضة لا يعرفُ منها البشر
شيئاً مهما قالوا ومهما صرخوا . ومن يقول لك بأنني اكتشفت
سرًّا من اسرار الحياة فاضحك منه وقل له انك جاهل
لا تدرك شيئاً لانك من تراب الارض جُبلت فهل تقدر
الارضيات على ادراك الروحيات ؟ . . .

كلٌّ يغني على ليلاه وكلٌّ يضرب على اوتار عوده
اذا ابتسم الدهر لهذا ابتسامة صغيرة نادى باعلى صوته:
ما اجمل الحياة ! ! !

وان قطَّب له عن حاجبيه . استنجد بالخالق وقال رحمتك يا الهي فهذا العالم مملوء بالمصائب والآلام !

امَّا انا فقد افتكرت كثيرًا قبل ان اكتب لك هذه الكلمات ونظرت الى العالم نظرة اجمالية فوجدت بان لا سعادة على الارض وكل عمل يأتيه الانسان يدل على شقائنا وتعاستنا

ألا تذكر يا عزيزي يوم كنتَ في المدرسة تبكي من اعماق قلبك ، واقتربت منك وسألتك السبب الذي يحملك على البكاء — وقد كان لفراق فتاة احبتها نفسك ـ فأجبتني. أُف ما ما امر الحياة وما احلى الموت ! ؟ .

ألا تذكر يومَ خرجنا للنزهة بين القبور وشاهدنا أمًّا تبكي ولدها الوحيد وتبلل التراب بدموعها . فشاركناها بذرف الدموع وقلت لي : لماذا نحن البشر اشقياء يا حبيبي؟

الا تذكر ساعة خروجنا من المدرسة كيف كنا نذم الدهر ونشتمه لانه فرَّقنا ؟ . . . ألا تذكر ذلك يا عزيزي ؟

تذكر . تذكر . جيدًا ! !

وصلت الى هنا فقُرِع الباب ودخل ساعي البريد يحمل اليّ كتاباً مخططاً بالسواد . فلمَّا فضضته ارتعدت فرائصي ووقع القلم من يدي

في ذلك التحرير يا اخي نُعي اليّ اعز شخص احببته في هذه الحياة نُعي اليّ صديقي . . . واليك ما تضمنه :

« عزيزي ندره

« والدموع تمتزج بمداد دواتي انبئك بموت صديقك . . . انعي اليك من كان يحبك محبة قلبية . ذلك الشاب الاديب الذي لم يزل في زهرة صباه

« مات فجأة وهو يكتب لوالدته الارملة يشكو لها الم الفراق فتعزَّ يا حبيبي » صديقك

XXX

. . . .

عندما قرأت هذا الكتاب يا اخي . عندما تمعنت بمكنوناته استلقيت على مكتبي وبكيت

لم ابكِ روح الفقيد لاني اعتقد بانها مسرورة الآن

بابتعادها عن هذا العالم الشرير

لم ابكِ نفس صديقي لانها خالدة تتمتع بعالمٍ غير هذا لا خداعَ ولا تزلف فيه . ولكني بكيت سوء حظي . وسوء حظ ارملةٍ تنظر الى ذلك الشاب نظرة الوثني لصنمه . نظرة الفقير لفلسه .

آه يا عزيزي لو يتمكن انسانٌ الآن من الدخول الى اعماق نفسي . وتحليل عواطفي تحليلًا كيماويًا لوجد حقيقة ما قاله اناتول فرانس « Anatole France » ان النفس مصدر الاحزان

لتأكد ما فاه به ذلك الفيلسوف الكبير لمَّا خاطب من يفتش عن السعادة قائلًا : ان السعادة يا هذا لفظة لا تقدر على قراءتها لانها لم تكتب بعد بلغةٍ من لغات الناس ولا تتعب بقراءة شيء لم يكتب بعد

***

لقد تكاثف الظلام يا اخي ولم اعد ارَ ما اكتب . لقد قرعت الصوامع اجراسها داعيةً ابناءها للصلاة فتبلبلت افكاري

وقمت الى مخدعي لأتلو الصلاة التي لايتلوها بشر

لابكي على ابناء الانسانية البؤساء الذين يتألمون من جراحات نفوسهم

لاريح جسدي – اذا كان في النوم راحة كما يقولون – من المعركة الهائلة التي شبت نارها بينه وبين النفس

فاعذرني يا اخي . وارجوك الا تحمل ما كتبته لك الآن على محمل التصديق ، لاني ابصرتُ بعيني ووضعتُ اصبعي في الجرح

وان آمنت او لا فعليك السلام آخرًا واوّلًا

وردة الناسكة

ما اجملكَ ايها الصباح . وما ابهجكِ ايتها الزهور الذابلة المنحنية فوق الربيع فإنكِ تمثلينَ لي مشهداً طُبع على صدري بأحرف الالم . وتعيدين لذاكرتي ما طالما حاولتُ ان انساه فأبى الا ان يظلَّ مرسومًا – عبرةً وذكرى – .

×××

قبل ان تنهض العصافير من اوكارها . وقبل ان يستفيق الراعي من نومه ويذهب ببقره الى الحقل . كنت في البرّية ملبيًا دعوة الطبيعة وجالسًا تحت ظل السنديانة .

في ذلك المكان المقفر الذي قلّما تطأه اقدام البشر لانه بعيد عن المدينة كنت مختلياً مع الطبيعة اشكو لها ما أُلاقيه من الآلام . واسرُّ اليها سوء الحالة التي وصلنا اليها في هذه الايام فتخفف عذابي بهبوب النسيم وتُسكّنُ ما جاش في صدري

بأريج الزهور.

بالقرب من تلك السنديانة القديمة – التي كانت تلجأ اليها طيور الحقل فتعشش فيها اوكارها – شاهدت كوخاً حقيراً مبنياً باغصان الحور والدلب. وسمعتُ صوتاً شجياً يمتزج مع ذرات الاثير فنهضتُ وسرتُ نحوه فرأيت امرأةً قد بان الشيب في شعرها متوسدةً كومةً من الحشيش الأخضر. ومسندةً رأسها على حجرٍ املس وهي تذرف الدموع وتغني اغاني محزنة . ولما رأتني واقفاً بالباب رمتني بنظرة امضى من السهام ونهضت مجفلةً عن فراشها اللطيف وبصوتٍ تتماوج في مقاطعه معاني الالم قالت لي :

كائناً من كنت . غنياً او فقيراً اميراً او صعلوكاً ويكفي انك انسان اسألكَ باسم المحبة ان تبتعد عن هذه الاماكن المقدسة ولا تدنسها باقدامك

لقد هربتُ من العالم حتى لا اشاهد البشر. فهل جئتَ الآن تذكرني بزمني الغابر.؟

استحلفك بكل عزيز تحبه نفسك ايها الانسان. بل

بحق هذه العصافير اللطيفة التي تستقبل الشمس الشارقة بالتغريد والزقزقة — ان كنت ممن يفهمون لغة الطبيعة الناطقة بلسان الزهور والطيور — ان تتركني ولا تسمعني صوت البشر هؤلاء الذئاب الضارية — هؤلاء العقارب السامّة فأن في اصواتهم مدىً تُقطع قلبي

آه لو كان بامكاني ان اميتهم جميعاً وامحيهم عن صفحات هـذا الوجود لمَا تأخرت ابداً . ابتعد عني بالله يا هـذا ! ابتعد عني !

ولكنني لمَّا كلمتها وابنت لهـا انني لو لم اكن اكره ضوضاء المدينة . وابغضُ العقارب البشرية . لمَا بكّرتُ بكور الزاجرِ الى البريَّة حتى اسمع صوت الطبيعة واتعلم منها . قالت لي تعالَ اذن لألقي عليك امثولةً لم يتعلمها بشر وقد تعلمتُها من الدموع

جلسنا . ومسحت الناسكة دمعةً قد جرت على خديها وقالت :

وانا في الرابعة عشر من عمري – في سن الاحلام الذهبية – قادني القدرُ الى بيت احد الاغنياء الذين يجمعون المال اكداساً فوق اكداس . او ينفقونها في سبيل شهواتهم الدنيئة . و يضنون بها على البائس المسكين

الى احد هؤلاء الحيوانات الذين لا يهمهم سوى املاء معدتهم واشباع اميالهم ساقتني الظروف . فمال اليَّ واصبحت زوجةً له .

في تلك الحداثة المملوءة ابتساماً وسروراً . والمزوجة بالتخيلات الشعرية . ساعة كنتُ احسبُ السعادة بالثوب الحريري والخاتم الذهبي وضع والديَّ في عنقي قيداً حديدياً وسلماني لمن لا تُحبهُ نفسي ولا تميل اليه عواطفي . فكان يبتسم لي ابتسامة المحبة . ولا يصغي لصراخ نفسي المقيدة التي تنادي: اسقوني من المحبة فهي شرابي انا العطشانة

فعلوا كل ذلك يا اخي لان زوجي كان من ارباب المال . وارباب المال يُعبدون عادةً في هذا العالم الكاذب

لم يشفقوا على فؤادي الصغير الـذي كانت تنمو فيه بذور الاميال والعواطف .

لم يعلموا ان النفس الراقـدة متى استفاقت من نومهـا وشعرتْ بوطأةِ الجور . إمَّا ان تقتلَ ذاتها . و إما ان تتحرر . بل قادوني الى مضجع الغني الحريري واصمّوا آذانهم عن سماعِ صراخ نفسي

عبثاً كنتُ اذرف الدموع امام قدمي كاهن القرية لمَّا استيقظتُ وعرفتُ بأن حياة المرأة بالمحبـة لا بالمـال والسؤدد ورأيتُ اجنحتي ترفرف وتريد الطيران بي الى سماء الحرية والمحبـة فترتجف وتسقط عجزاً بقربِ تلك القيود الثقيلة التي قُيدتُ بها . وباطلًا كنتُ استحلفهُ بقواتِ السماء والارض ليحل عقد قراني

« إنّ ما ازوجهُ الله لا يفرقه الانسان » ذلك ما كان يجيبني به . و يردّدهُ على مسمعي

الفاظٌ جميلة . وعبارات منمقة ينظمها الكهّان والقسس !

ولكن كم يا ترى في هذا العالم الشرير من الزيجات الفاسدة التي نعيذ الله وعدله ان يكون هو الذي ازوجها » كزيجتي.؟

كم مرةٍ ارتفعت يدُ الكاهن لتبارك اكليل نفسين لم تتحدا فعادت لعنةً ؟ . .

لا يكفي ان يتلو الكاهن تلك الصلاة التي يقدرُ كل انسانٍ ان يتلوها حتى تصبح الزيجة مقدسة . بل في اعماق

الصدر صلاة يتلوها الحب تقدس الزيجة وتباركها

ليت شعري ما هي السعادة التي تُرجى باتحاد رجلٍ مع امرأةٍ لم توقد السماء في نفسيهما شعلة المحبة . ولا شعرت اجفانهما بألسنة النار المقدسة ؟؟ . .

وما هو الهناء الذي يأمل ان يجده الرجل بمقارنة امرأةٍ لا تُحبهُ ولا تميل اليه ؟

آه لو كان في هذا العالم انصافٌ وعدل لقُطعت يدُ كلِ كاهن ترتفع لتبارك اكليل ابنةٍ لم تستيقظ من سن الحداثة .

لفُصلَ كلَّ قران بُني على أسس الغش والفساد .
ولا أُطلقت الحرية للمرأة لانتقاء زوجها كما هي مطلقةٌ له الآن

ولكن يا اخي مع كل ما كنتُ اشعرُ به من هذا الشعور الحي بقيتُ محافظةً على العهد ولم احنث به

لم اصنع «كوردة الهاني» — سميتي — بل صبرتُ وكنتُ اعزي نفسي بذرف الدموع ... وكل من كان يراني في تلك الحالة كان يهزأ بي ويردد هذه الجملة المأثورة : سلاح المرأة دموعها .

عفوك يا الهي فان تلك المخلوقة التي جبلتها بيديك ونفخت فيها نسمة من روحك تُسام انواع الذل والاحتقار وتظلم من الرجل الذي يدعى السلطة والسيادة عليها

أمَا انت الذي قلتَ له في كتابكَ : احبب امرأتك كنفسك ?? ... اما انت الذي اوجدتنا متساويين فلماذا اذن تسمح بان اكون تعسةً كل حياتي ? !

إنّ في احكامك يا الهي اسرارٌ غامضة يُقصر ادراك البشر عن فهمها ...

لفظت « وردة الناسكة » هذه الكلمات بصوتٍ متألم ورفعت يديها المرتجفتين نحو العلاء كأنها تريدُ ان تقبضَ على شيء في عالم الغيب . ثم نظرت اليّ وقد احمرّت عيناها . واصبح منظرها مخيفاً وقالت باكيةً :

ليت الدهر يا اخي اكتفى بتجريعي تلك الكأس المرّة مرّة واحدةً بل اضاف اليها كؤوسا . ففي احد الايام بينما كنتُ جالسةً قرب كانون النار اطالع صحف المساء عليّ اسلو شيئاً من مصائبي قرأت هذا النبأ البرقي :

« البورص في هبوط هائل . كثيرٌ من الاغنياء قد انتحروا والحالة حرجة »

فازدادت نيران شجوني اضطراماً . وتجددت احزاني لان زوجي كان يشتغل بالبورص . وهو لا بد قد خسر كل ماله فاصبح لا يملكُ ما تقتاتُ بهِ . فكيف التخلص من هذه المواقف الحرجة ؟

ارشدني يا الهي فقد ذاب فؤادي من المصائب المتعددة ولم تعد نفسي قادرة على احتمال الرزايا . اما يكفيني تعاستي وشقائي حتى تبلوني بالفقر ؟ . .

كيف اقابل زوجي ؟ . . ام كيف اجسر ان انظر اليه عندما يأتي . . . ارشدني يا الهي !

مضت الساعة المعينة لقدومه من ادارة اشغاله يا اخي وهو لم يأتِ بعد فتبلبلت افكاري وانشغل خاطري

ماذا المّ به ياترى ؟ هل انتُحر ؟ . . هل نزلت به نازلة؟ . . ولكن لم يطل الصراع بين حيرتي وظنوني حتى سمعته يضرب على الباب وهو يعربدُ لاعناً النساء . ورائحة الخمرة تنبعثُ من شقوق الخشب . فقلت في نفسي . ما هذه الروح الفاسدة يا خالقي ! أَيلعنني لانني احتملُ فظاظتهُ وخشونته بكل صبر . واسرعتُ لافتح له الباب خوفاً من غضبه .

وقبل ان اكلمه بادرني باللطمة على وجهي وقال لي : غداً تسافرين الى اميركا لتحملي الكشة وتتاجري حتى ترسلي لي الدراهم التي صرفتها في سبيلكِ وبعد ذلك تصبحين حرة

طلِيقة لانكِ شؤمٌ عليّ . وهـا انا قد خسرت كل دراهمي لانكِ في بيتي

فلم اجبه الاّ بدمعةٍ ذرفتها عيني وتمنيت لو اطاق عليَّ مسدسهُ – الذي كان يحمله بيدهِ – واراحني مـن هـذه الحياة . . . .

وفي الساعة الثامنة صباحًا من اليوم الثاني كانت الباخرة التي تحملني الى اميركا تشق عباب البحر كأنها عاشقٌ اذابه الشوق يسيرُ للقاء معشوقته

تركتُ اهلي وبلادي وسماء وطني الصافية . وذهبت الى بلاد الحرية هربًا من الجور والاستبداد .

هجرتُ زهوري وعصـافيري – التي كانت تشاركني بدموعي – وهاجرتُ الى ارض كولمبوس لعلي أَشعرُ بنسيم الحرية في تلك البلاد القاصيـة وانعتق من اسر تلك القيود الحديدية التي كانت تثقلُ كاهلي . وكنت كلما ابصرتُ طيرًا يُحلقُ في الهواء احسده عـلى تلك النعمة التي يتمتعُ بهـا . واذرف دمعةً على بنات جنسي اللواتي يرسفنَ في سلاسل الظلم

كلّ ما في هذه الارض يا اخي مـن الحيوانات الغير العاقلة تعيش بحرية . اما البشر فقد حرموا ذواتهم من هذه المنحة السماوية وسنوا لانفسهم الالهية شرائعًا ارضية عالمية

شاهدوا النور فوضعوا على اعينهم حجابًا كثيفًا من الوهم وناحوا قائلين : ما هذا الظلام الدامس ؟ . . . وكادوا يعانقون الحقيقة فابتعدوا عنها وصاحوا مولولين : اين انتِ يا معشوقة سليمان ؟

اذا قام فيهم من يدعوهم للانعتاق مـن قيود الشرائع البشرية الجائرة قالوا هـذا كافر جاحد إن ربكَ لا يحبُّ الكافرين . وإن ابتعد احدٌ عـن جامعتهم لان نفسه أبت ان تظلّ مستسلمة لاوهـامهم الباطلـة وصموه بالتمرّد وراحوا نائحين : إنه معتوهٌ فخذوه الى دار المجانين

هذه هي حالة هذا الشرق المريض الذي يئن مـن داء التأخر ويشكو ألمَ الانحطاط .

ولكن ياترى انظلُّ عبيدًا للشرائع الارضية الفاسدة ؟...

انظل عاملين على دفن عواطف قلوبنـا في التراب ولا نجسر على رفعها الى العرش السماوي ؟ . . .

متى تنيرينا بنورك الجميل ايتها الحريّة فنشاهد الحق ؟ . . متى تزيلين عن اعيننا غشاء الاعتقادات الوهمية الباطلة لنسير في طريق الهدى ؟ . . . متى يتحول بصرنا نحو الشمس فنرتفع قليلًا عن تراب الارض ؟ . .

تخيلاتٍ طالما نطق بها لساني يا اخي وانا ملقـاةٌ عـلى ظهر الباخرة أتألم مـن حرارة الحمّى وغلاظة المهـاجرين رفقائي في السفر فيترددُ صداهـا مع تموجات الاثير وتدخل آذان البعض من جيراني فيضحكون مني ويبصقون في وجهي ويرددون : إنها مجنونة تكفر بالله

ولما وصلنا مرسيليا — وانا لا ارى شيئًا سوى خيـالٍ جميلٍ كان يصوّره لي الوهم — اقترب مني احد ابناء وطني الساكنين بتلك الديار . وقـد كان سمسارًا . وقادني الى عربةٍ كانت تنتظره على المرفأ وجاملني بكل لطف فشكرت الله لانني وجدتُ تعزيةً في الديار التي هربتُ اليها . ولكن

لما ابتعدنا قليلًا عن الناس كلمني قائلًا : اعطِني دراهمكِ لاخبئها لكِ فاني اخاف بان يسلبوها منكِ . وعندما تطلبينها اقدّمها لكِ . ولما عرف بانني لا املك ما اتبلغُ به طرحني من العربة بلا شفقة وتركني اتمرغ في الشارع تحت رحمة الفضاء

في ذلك الشارع المظلم يا اخي حيث تكثر الاقذار رماني ذلك الوحش . وليته تركني في الباخرة لعلي اجدُ قلبًا رقيقًا يعطف عليّ فيقيلني من عثاري

ولو جئتُ الآن لاعيد ما لاقيته هناك من صنوف العذابات والمصائب لابكيت الصخر وحركت الجوامد . ولكنني اكتفي بأَن اقول لك انه لو كان في قلوب الشرقيين عاطفة شريفة لما تركوا نساءَهم تهاجر الى بلادٍ كلُّ ما فيها فجورٌ بفجور .

ولستُ اعلم ـ وحق هذه الزهور الجميلة ـ كيف يدعونها بلاد التمدُّن والرقي وارض العمران والاصلاح

ان ما يدعونه تمدناً ليس الا وهمًا باطلًا يتلاشى امام نور الحقيقة كما يتلاشى الدخان عند هبوب الريح . وما يدعونه

رقيًا ليس الاخمولاً وانحطاطا

فالتمدن الذي يقضي على الاطفال بالموت في الشوارع بردًا ويحكم على المرأة ان تبيع طهارتها بالمال لتطعم اطفالها الايتام الجائعين بينما الاغنياء يحتكرون الفحم والخبز ليزيدوا في ثروتهم واملاء صناديقهم هو تمدنٌ فاسد مبني على اسس الخداع والمكر

والرقي الذي يحمل الحكومات على سنّ الضرائب الجائرة التي يضطر معها ابن الشعب على الانتحار لاجل تقوية الحربية — العاملة على تقويض بناية الهيئة الاجتماعية — هو رقي باطل نساءٌ تترمل ـ واطفالٌ تتيتم ـ ودماءٌ تهرق ـ واعراض تهتك ـ كل ذلك وهم يقولون : « ان مدنيتنا الحاضرة ثابتة الدعائم راسخة الاقدام » فيا لله من جور الانسان

وليت شعري هل يقوم التمدن بالتمييز بين الغني والفقير والتفريق بين القوي والضعيف ؟ وهل تتكمل معدات الرقي بالقاء نيران الحروب بين شعوبٍ ساكنةٍ هادئةٍ مطمئنة اكرامًا لهذا الوزير او تلك الغانية

عفوك ايتها الطبيعة! لا تغضبي على ابنائك الذين يعملون على قتل ذواتهم بقتل اخوانهم الفقراء . فقد اعماهم التمدن الباطل . واغوتهم بطونهم واميالهم

هم الآن سكرى بخمرة المال لا يصيخون لصوت ضميرهم سمعاً ولا يعيرون لنداء الحقيقة اذناً ولكن متى استفاقوا فهناك البلية الكبرى

دعهم يغطون في نومهم العميق فمتى جاء النور وحرك اجفانهم الثقيلة يعضون اناملهم ندماً على ما فات ويشتغلون لما هو آت

هم يقاصون انفسهم بانفسهم فلا ترميهم بنيران غضبك ولكن استحلفك بعصافيرك وشحاريرك . بزهورك وحقولك . ان تحركي عواطف ابناء الشرق وتقيليهم من عثارهم فقد زلت قدمهم وسقطوا في الحفرة العميقة — وهدة التمدن الفاسد .

لقد ألف البعض منهم — وهم الكسالى — عادةً وبيلة تأصلت في نفوسهم واصبحت ملكة لا ينزعها الا سلطان الموت وهي ارسالُ النساء الى البلاد الغربية طلباً للرزق وتحصيلاً للاموال

شريفة كانت الطريقة ام غير شريفة بينما هم متمددون على فراش الكسل يقضون الاوقات في حانات المسكر والمقامرة

تأتي المرأة من تلك البلاد وهي لم تعرف غير زوايا منزلها المظلمة ولم تشاهد غير رجلها السكّير الذي كان يحجرُ عليها فتجدُ هنا حرية مطلقة متطرفة وتعمل ما تشاء بدون مانع ولا رادع

تعاشر نساء الشوارع لانها لا تقدر على معاشرة غيرهنّ لفقرها وجهلها . فتكون بحكم الطبع مقادة لتقليدهنّ بجميع الامور وهناك البلاء الاعظم

تحمل « الكشة » وتسير في البراري طلباً للارتزاق فتأتي من الاعمال التي يندي منها جبين الانسانية خجلاً . وفي ذلك ما فيه من العار والذل

اذا تحركت عاطفة الشفقة في قلوب بعض العقلاء وجاؤا ليردعوها عن اعمالها الدنيئة تصرخ بهم صوتاً عالياً قائلةً : اتسلبوني حريتي الشخصية واستقلالي الذاتي ؟ دعوني وما لكم وما لي انا في بيتي وانتم في بيوتكم . فيرجعون من حيث اتوا

وهم يبكون سوء حظ وطنهم وحظ ابنائه

وكم من مرةٍ يا اخي سمعتَ الغربيين يهمسون في آذان بعضهم البعض قائلين :

اما عارٌ على الشرقي الذي ينبضُ قلبه بدماء الرجولية ان يرى امرأته او ابنته سائرة في الشوارع حاملة الكشة وهي قد اصبحت عاهةً في الهيئة الاجتماعية ؟

اما عارٌ على ابن سوريا ان يلطخ ثوب بلاده الابيض باقذار الذل والهوان . ويجعل نفسه في منزلةٍ تحطُّ من قدره وقدر اجداده الذين كانوا يفضلون حمل المعول والمجرفة والشغل الشاق اثناء الليل واطراف النهار على ان يمسّ لهم عرضٌ او ينقصُ من كرامتهم

الا يذكرون ما قال شاعرهم :

لا تسقني كأس الحياة بذلةٍ بل فاسقني بالعز كاس الحنظلِ

ولكنهم كيف يذكرون والقلوب مشتغلة عن التذكر بالبغضاء . او كيف يسمعون والآذان صمّاً .

ومع ذلك فقد عدت اليهم تاركةً تلك البلاد القاصية

٥

البعيدة وقد مرَّ عليَّ خريف وربيع وانا اقطنُ هذا الكوخ لا اشاهدُ احداً ولا اكلم بشراً

آكلُ من حشيش البرية . واشرب من دموع عيني . وابذلُ جهدي حتى لا ارى انساناً . ولكن انت كأن السماء قد ارسلتك لتكون شاهداً على شقائي وتعاستي . فهذه هي حكايتي ايها الشاب وهذه امثولتي

قد بسطت لك قلبي وفتحت امامك صدري فرأيت مخبآته فاخبر الناس ان شئت ان وردة الناسكة لم تكن قط امرأة خائنة شريرة

×××

ولمَّا انتهت السيدة وردة من كلامها وقفتُ

وودعتها مظهراً بغير الكلام تأثيرات

نفسي وفواعل قلبي

ودفعني لاستطلاع كنه امر تلك المرأة . فلما تقدمتُ نحوها وتأملت فيها قليلًا عرفتُها

أجل عرفتها تلك القروية الطاهرة القلب التي كانت ترعى الحملان في الوادي .

عرفتها تلك النعجة الوديعة التي كانت تحملُ اليّ اغصان الزيتون والصفصاف لبناء كوخي لما هربتُ من ضوضاء العالم الى الجبال

ولكنني وا اسفاه رأيتها الآن على غير ما اعهدها .
عهدي بها طليقة الوجه باسمة الثغر فما بالها تعسة كئيبة ؟
عهدي بها طاهرة عفيفة فما لي اراها يسوقها الشرطي كالجانية؟
عهدي بها لا تحمل الا الازهار في يديها فما لي اشاهد الحديد عوض الازهار؟ . . .

***

لقد انتاشتها ذئاب البشرية الضارية واعملت انيابها في

قلبها الطاهر وبعد ان استنزفت منه دماء الحياة . تركتها تئن

من الالم وتبكي وتستجير ولا مجير لها ولا معين غير دمعها السخين

تقرح الجرح في قلبها وانبعثت منه رائحة كريهة فانكرها والدها وحمل امها واخواتها على التبرؤ منها لان داءها « يعدي » وابتعد القوم عنها اذ رأوا اقرب الناس اليها ينبذونها نبذ النواة . فاصبحت شريدة طريدة تنظر بعين المذلة والاحتقار . وليت احد هؤلاء القساة يذكر ما قاله هيجو معزي البشرية التعسة : « ايها الرجل – وكلنا هذا الرجل – لا تحتقر ابداً امرأة سقطت لانك لا تعرف تحت اي حمل ثقيل نفسها رزحت » فيرحمها ويسكب على جراحها بلسماً لا ما يزيدها الماً

مرّ على تلك الجريحة المسكينة يومان . وهي هائمة على وجهها في البراري والقفار لا تدري كيف واين تسير . وقد استحال النور في عينيها ظلاماً . واصبح البشر في نظرها وحوشاً ضارية تستعد للوثوب عليها

عضها الجوع بنابه ورماها العطش بسهامه فعادت الى

الى المدينة - الى اتون النار . هناك حيث تُفقد الطهارة وتسود الرذيلة — وسارت في الشوارع تطلُب ما تسدُّ به رمقها وتطفي نار عطشها . وليت شعري اين هي مما يؤكل ويشرب وقد هجرها البعيد والقريب وانكرها العدو والحبيب

سارت واليأس امامها حتى انهكها التعب واخذ منها كل مأخذ فسقطت الى الارض وهي تبكي بحرارة نفس وتتألم

مدت يدها البيضاء تستعطي المارّة . وتستحلفهم باسم السماء وبكل عزيز لديهم ان يجودوا عليها بما تتبلغ به . ولكن عبثًا كانت تنادي لان الآذان صمت عن سماع ذلك الصوت الضعيف . والعيون عميت عن رؤية ذلك الهيكل البشري الملقى على التراب

وكما ان كل ما في هذا الوجود يطلب ما له بالحاح . هكذا معدة تلك المرأة كانت تطلب حقها بغير انقطاع حتى حملت صاحبتها على السرقة . . .

تلك الفتاة الطاهرة التي كانت تحترم حقوق الغير

اصبحت الآن تعبث بتلك الحقوق المقدسة . وليس الذنب في ذلك ذنبها

جاء الشرطي فرآها تسرق فساقها الى السجن – الى المكان المظلم حيث يسكن اللصوص وقطَّاع الطرق – وهي الان تقاسي انواع الذل والهوان . وليس الذنب في ذلك ايضاً ذنبها . . انما ذنب ذلك الوحش الضاري الذي امتص دماء الشرف والعفة من قلبها وتركها تقاسي العذاب والهوان

***

هذا مثال المرأة التي فقدت طهارتها واصبحت . . .

هي كما قال هيجو : كقطرة ندى صافية عانقتها يد الصباح على غصن زهر يانع . فهب عليها نسيم الخداع واسقطها الى الحضيض حيث امتزجت بالتراب . فتحولت الى وحل

بعد ما كانت تتلألأ بالنور اصبحت في وهدة عميقة . ولكن مهلاً ايها المتسرع ! فيكفي لتلك القطرة الساقطة شعاع من نور الشمس حتى تتبخر وترجع الى ما كانت عليه من الرونق

والبهاء . يكفي لقلب تلك المرأة شعاع من نور الحب الطاهر حتى يعيده الى ما كان عليه من الجمال والبهجة . يكفيها نظرة انعطاف وحنو حتى تذكرها بزمنها الغابر فترجع اليه

***

لو اجلنا الطرف في البلاد الراقيـة وتأملنا قليلاً احوال ابنائها لنظرنا العدد العديد منهم يكرسون انفسهم ويحيون الليالي الطوال لانشاء الجمعيـات التي تسعى لانتشال المرأة الساقطة من وهدتها . وليت شعري اي قصدٍ اشرف واسمى من هذا القصد الذي به يظهر الانسان ما في قلبه من الرحمة والشفقة نحو الضعيف

فاين اصحاب النهضة الحقيقية في هذه البلاد ؟ اين ذوو القلوب الرقيقة فينهضوا لتأليف جمعية غايتها جـبر القلوب المنسحقة . وتعزية البائسين وتشجيعهم للـدخول في الهيئـة الاجتماعية

نحن يا قوم في اقصى الحاجة الى هذه الجمعية التي تعلم البائس الصبر ، والسعيد الشفقة . نحن في حاجة الى قلوب تشارك الفقير في بؤسه ، والحزين في حزنه . فقوموا بهذه النهضة وارونا ما نحلم به منذ امد بعيد ؛ فتنالوا اجراً عظيماً

والسلام

الزنبقة الذابلة

هجستْ في صدري هواجس ذات بال اشغلت عقلي وبلبلت افكاري . فخرجتُ الى الطبيعة لابثها مكنونات صدري واناجيها بما يخالج فؤادي علّها تفرج غمي وتزيل كربي . فراقني منظرها الجميل واسكرني اريج ازهار الربيع . فاتكأت على تلةٍ صغيرة فرشتها الطبيعة ببساطٍ سندسي — كأنها اعدتهـا لاراحة المتعوبين — امثالي — من ضوضاء المدينة — واخذت بالتأملِ في تلك المناظر اللطيفة التي لو اتخذهـا الانسان مرشداً في اعماله لاستفاد منها ما لا يستفيده في سنين عديدة من بني الانسان

ففي تدلي الاغصان درس . وفي تحرك الاوراق درس .
وفي حفيف الاشجار درس

هبَّ النسيم العليل السائر عن اعالي الجبال فاعاد اليَّ بعض الحياة وانعش نفسي المثقلة باتعاب العالم . فشكرتُ للباري تعالى هذه المنّة . وحمدتُ الطبيعة على ما اوتيتُ من الراحة والسكينة . وقمتُ من مربضي متنقلاً بين الاشجار ومعجباً بهذه الخلائق الباهرة التي تخلب العقول وتسبي القلوب حتى اوقفني منظرٌ موثّر جرح فوأادي واعاد لنفسي الحزن

رأيت الزنبقة الجميلة مصفرةً منثورة الاوراق وهي اقرب الى الموت منه الى الحياة . لانها بعيدة عن مياه الساقية ومعرضة للفحات الحر

رأَيت هذا المنظر و بكيت حياة الزنبقة القصيرة

ثم نظرت الى جانب الساقية فابصرت شجرة الدلب باسقة الاغصان . مخضرة الاوراق يداعبها النسيم فتمايل بعظمة . و يغرد على افنانها الطير فتهتز كأنها تهزئ باصفرار الزنبقة

رأيت هذه ايضاً فغبطتها لانها تتمتع بالحياة
ولكن شتّان بين الزنبقة وشجرة الدلب من حيث البهجة والرونق وحيث السعادة والشقاء . فلِمْ يا ترى تعيش هذه وتموت تلك ؟

سؤال القيته على نفسي فانطلقت معه في عالم الخيال واخذت تخاطب الطبيعة قائلةً :

قاسيةٌ انتِ ايتها الطبيعة لانكِ لا تشفقين على حياة الزنبقة بل تتركينها بعيدة عن مياه الساقية لتموت جوعاً وعطشاً !

وغادرٌ انت ايها الدهر لانك لم ترحم جمال ملكة الزهور بل فتكتَ بها ودستها باقدامك الحديدية

مسكينةٌ انتِ ايتها الزنبقة لانكِ تموتين في ايام الحياة واوراقكِ تذبل في بهجة الربيع

سألتِ الندى فبخل عليكِ الندى بقطراته . وسها البستاني عن ان يسقيكِ من مائه . . . فيؤساً لكِ ما اتعسكِ واشقى حياتك . ويا ليتكِ لم تنبتي في هذه الارض

البعيدة عن مواد الحياة . بل ليتك بقيت في عالم اللا وجود !

ايتها الطبيعة ! لماذا تجودين على هذه الزهرة اللطيفة وتحرمينها الحياة . اما حرام ان تذبل وهي في ربيع العمر ؟ .

ايتها الطبيعة ! ايتها الطبيعة ! لماذا تبخلين على الزنبقة الطاهرة بالمياه وتجودين بها على شجرة الدلب ؟

كيف تدعين رمز الوداعة تذبل وتيبس ؟ وكان الاحرى ان تعيش وتحيا لتنشر عرفها الذكي . آه ما اقساكِ !

xxx

تلك الزنبقة هي رمز فتاةٍ طاهرة متحلية بالاداب والصفات الحسنة

فتاة جاد عليها الجمال بكل محاسنه . وزينها اللطف بكل معانيه . لكنها وا أسفاه . . . فقيرة . . . بخل عليها الدهر بالدينار

XXX

واصبحت صفراء ناحلة اتمايل كالظل ولهذا انا متيقنة بانفصال نفسي عن جسدي . انا متيقنة بالموت العاجل

فلا تبكِ شبابي ياجميل! . . . لا تبكِ زهرة صباي ! . . . لا تبكِ الساعات الجميلة التي قضيناها سويةً تحت ظلال الحور والسنديان ! . . . لا تبكِ الفتاة التى تموت شهيدة جور التقاليد والاعتقادات الباطلة فانا مسرورة بالابتعاد عن هذا العالم الشرير المملوء خيانةً ورياء . ولا اسأل شيئاً في هذه الدنيا سوى شيء واحد هو ان اراك وامتع نظري بعينيكَ الجميلتين

ولكنني مسكينة فانني سأموت وانتَ بعيد عني . ستتلاشى انفاسي قبل ان اراك جالساً بقربي . فيا لله اما اظلمك ايها الكون وما اقسى احكامك . وبؤساً لكِ ايتها البشرية مـا اعماكِ عن رؤية الحق . . .

حبيبي جميل

لقد تركتُ اهلي وهربت الى هذه الاماكن المقفرة لاجلكَ

لقد تعذبت كثيراً وها انا الآن واقفة امام ابواب الابدية لاجلك

لقد فضلت الموت على الحياة وآثرت غضب والدي لاجلك فهل تظلُّ بعيداً عني ؟ . . . وعندما يأتي الربيع وتتفتح الزهور الا تأتي الى ضريحي وتضع عليه وردة جميلة ؟

آه يا جميل ما اجمل هذه الساعة لو كنت بقربي وما الطف هذه الدقائق لو كنت اراك

الآن عرفتُ ماهية الانسان وادركت اسرار الحياة فتأكدت ان العمر حلمٌ وان الشرائع التي يسنّها ابناء الانسانية هي وهم بوهم

الآن تجسمت امامي تلك الجرائم الفظيعة التي يرتكبها البشر ظناً منهم بان يدافعون عن الشرف فعلمت ان لا حياة ولا شرف بغير الحب . . .

اصغَ اليَّ يا جميل واقرأ ما اكتبه لك بامعان وتروي فهذه

وصيتي لك قبل وداع هذا العالم

لقد ابتعدت عني يا حبيبي لاعتقادكَ بانني قد خنتُ عهدكَ واحببتُ غيركَ وانت – وحق قلبك الرقيق – لو تبصرتَ قليلًا لعرفت بانني لا ازال أُحبكَ وكل عواطفي تحنّ اليك

لقد نأيتَ عن قلبي يا جميل لانّ الحسّاد قد وشوا بي اليك وقالوا لك اقوالاً لا ظلّ للحقيقة فيها فأعرتهم اذنًا وما علمت اني بريئة طاهرة الذيل مما قد وصمتُ به بل اني قد ضحيت ذاتي على هيكل حبك

اسمع يا حبيبي ...

الا تذكر يوم رأيتني في النافذة امسح دموعي واتنهد من اعماق قلبي – وقد كانوا قالوا لك ما قالوا – فرمقتني بنظراتٍ احد من السهام وبصقت في وجهي ولعنتني وقلت لي انني اتركك ِ الى الابد ؟

إنك كنت مخطئًا فيما فعلت وانا اسامحك واغفر لك انا لا احب سواكَ ولا اميل لغيركَ . وما كنتُ ابكي في

تلك البرهة الآن لان والدتي اخبرتني بانني قد خُطبت لجارنا الذي ابغضه بغضاً شديداً ولا اقدر ان انظر اليه ؟

لقد بكيتُ يا حبيبي لاني رأيت بأن المرأة في هذه البلاد تُعامل معاملة البهيمة تُباع وتُشترى ولا تشاور كأن لا نفس لها ولا ارادة

يسوق الوالد ابنته ويسلمها لرجلٍ لا تعرف من اخلاقه شيئا ويجبرها ان تكون زوجته . وما السبب الحقيقي في ذلك الا اهمال تربية العواطف عندنا في زمن الطفولية وجهل الرجل منزلة المرأة في الهيئة الاجتماعية

مسكينة تلك المخلوقة اللطيفة يا جميل . من ساعة ولادتها لساعة موتها هي اسيرة الشقاء والتعاسة . وليت شعري كيف تقدر ان تكون سعيدة باتحادها مع من يدعي السيادة والتسلط عليها ؟ ولست ادري وايم الله على اي دليلٍ يستند الرجال لاستعباد النساء وسلبهن حريتهن

هل جُبل الرجل من طينةٍ ارفع مـن طينة المرأة؟ ام هل يمتاز عليها بشيء ما؟...

اليست هي التي تهيء للوطن رجالاً؟ اليست هي التي تثقف ابناء اليوم لتجعلهم اكفاء لخدمة البلاد؟؟...

آه يا جميل من البشر الذين يجيئون من الابدية ويعودون اليها قبل ان يذوقوا طعم الحياة الحقيقية فانهم ينفونني مـن جامعتهم ويتبرأون مني — والبشر لا ينفون الا من تمردت روحه الكبيرة على الظلم والجور وترفعت نفسه عن تقاليد الانسانية الجاهلة

هم يجهلون اسرار الحياة ولا يفقهون معنىً الا لما كان ظاهراً منها.!

هم يلعنون الروح التي تعاكس شريعة الارض وتتبع وحي الآلهة وتحب.!

«هم لا يدركون كنه اوجاع المرأة عندما تقف نفسها بين رجلٍ تحبهُ بارادة السماء ورجل تلتصق به بشريعة الارض»!

هم يشرعون ويحكمون على ابنة حوّاء بانها دنسة مجرمة اذا انتحرت ولم تقترن برجلٍ لا تحبهُ نفسها !

هم لا يفهمون تلك المأساة الاليمة التي كُتبت بدموع الانثى ولا يفقهون لها معنىً

جميل . جميل . أَلا يمكنك ان تجنِّد من ذوي العقول الثاقبة والقلوب الرقيقة جنداً قوياً يدافعون عن الانسانية المتألمة ويدكُّون معالم تلك الشرائع الجائرة التي يدَّعي المتشرعون انها مستمدة من شرائع السماء وهي ليست الاَّ من وضع الاقوياء لمراعاة مصالحهم . أَلا تستطيع ان تقف مع جنودك سدًّا منيعاً ضد تيَّار المظالم الانسانية فتخفف ضحايا البشرية ؟

آه لو كنت تدري يا حبيبي ايَّة عاطفة كانت تجولُ في صدري في تلك الساعة الاليمة التي بها جرحتَ نفسي جرحاً عميقًا لا يبرأ الاَّ بالموت لشاركتني بذرف الدموع ولكنك كنت جاهلًا فعذرتك ولم اجاوبك على اهانتك الاَّ بتركي

البيت الذي نشأت فيه واتباعي خطواتك

انا لم اكن ادري اين سرت ولا الى اين ذهبت ولكنني كنت اشاهدُ امامي نوراً ضئيلاً يهديني في طريقي فاتبعه

سرت ومكثتُ اسير حتى اقبل الليل بظلامه ومخاوفه فوجدت ذاتي في غابةٍ كثيفة بين ايدي لصوصٍ لا شفقة في قلوبهم ولا رحمة

لقد ضربوني يا جميل وعذبوني واهانوني وانت بعيدٌ عني لا تشاهدني ولا تتألم لاجلي

لقد أُغمي علي ولم استفق من ثباتي العميق حتى وجدتُ نفسي في هذا المكان المقفر — في الدير — الذي اسكنه الآن مع الاخت ماري .

مسكينةٌ هذه الراهبة التقية فقد ضمدت جراحاتي وسكبت عليّ من دموعها بلسماً لقلبي وجراحاتي فاشكرها معي يا جميل ...

***

هذه العذابات لقد تركتني ايضاً فما اقل وفاء الرجل وما
أحبه لنفسه

وهت يدي واشتدت وطأة النوبة عليّ فرحماك رحماك
يا جميل اليَّ اليَّ تعال يا حبيبي لاودعك الوداع الاخير
الوداع الوداع .... يا حبيبي ... الوداع ..
يا جميل .. اقبلك القبلة الاخيرة ... آه يا الهي ......
مرغريت

***

عند الصباح لما فتح الفجر باصابعه الوردية
ابواب الشرق الذهبية استفاقت الاخت
ماري وجاءت لتشاهد مرغريت
فوجدتها نائمة نوماً ابدياً ....
جثةً هامدة لا حراك بها

.....

شهداء الادب

رحمةً ايتها الارواح الطاهرة السابحة في بحار الابدية ،
ارواح من تقدمنا من الكتبة والشعراء رحمةً رحمةً .

ولا تستنزلي سخط السماء على ابناء الارض اذا رأيتِ
فريقًا منهم يهزأ بكِ ولا يحترمكِ فلسوف يأتيهم يومٌ —
وهو قريب — يندمون فيه على ما يفعلون ولاتَ ساعة مندم

يسوءُنا وايم الله ويسوءُ كل اديبٍ حرٍ تسيل في عروقه
دماء الوطنية الحقّة ان نرى حملة القلم فينا الذين افنوا العمر

بين المحابر والاقلام واذابوا نفوسهم كالشموع ليضيئوا ظلمات عقول ابناء جنسهم يهملون في زوايا النسيان ولا يُقام لهم اثرٌ ينبيءُ الخلف بما كانوا عليه

وهي احدى عادات الشرق التي تعملُ على تأخره وانحطاطه اذ ان الشرقيين يحسبون التماثيل والآثار اشياءَ تافهة لا معنى لها

وليت شعري لو كانت التماثيل اشياء تافهة لا معنى لها — كما تعتقد يا اخي الشرقي لما كنا رأينا الغربيين وهم السائرون في سبيل التمدن والتقدم شوطاً بعيداً يملأون الشوارع والطرقات بتماثيل ابطالهم وكتبتهم الذين جاهدوا في سبيل الوطن وعملوا لما يُعلي مناره

لما كنا رأينا احقر قريةٍ في بلاد الفرنسيس تفتخر بانها اقامت تمثالاً لهيجو (١) او لفلتير (٢) او لجان جاك روسو (٣) او لميسه (٤). ونحن الذين ندّعي التقدم والرقي ندفن

(١) Hugo (٢) Voltaire (٣) J. J. Rousseau
(٤) A. de Musset

رجالنا العظام الذين نفعوا الهيئة الاجتماعية بكتاباتهم واقوالهم في احقر قبر

اعد نظرك معي يا اخي القارئ في صفحات التاريخ واقرأ وأبكِ

قضى الشيخ ناصيف اليازجي نحبه بعد ما اغنى العالم العربي بالمؤلفات النفيسة التي لو كان كتبها في لغةٍ اجنبية لجعلوه الهًا وعبدوه . فماذا ترى فعلنا له واي اثرٍ اقمنا لذكره ؟ . . . !

ومات « الاديب » بعد ما اذاب ذرّات دماغه . وسُجن واحتُقر في سبيل خدمة وطنه وبلاده فماذا تُرى فعلنا له . واي اثر اقمنا لذكره ؟ . .

وتلاشت انفاس « النجيب » والهفي على زهرة شبابه الناضرة = والقلم بيده والدمعة تجول في عينيه لانه مات فقيرًا و بلاده لم تبكهِ فبكى على نفسه . فماذا ترى فعلنا له واي اثر اقمنا لذكرهِ ؟ . .

وذهب الشيخ ابرهيم من هـذه الحياة الفانية بعد ما

اعاد للغة العربية عزها القديم وانار الالباب « بضياه » « وبيانه » فماذا ترى فعلنا له واي اثر اقمنا لذكره ؟ . .

ماتوا جميعهم وقضوا شهداء الوطن والبلاد ومضى كثير غيرهم من الادباء ونحن الذين كنّا نجلّهم في حياتهم وننعتهم بالالقاب الفارغة التي لا تجدي نفعاً ولا تدفع مكروهاً ماذا ترى فعلنا لهم واي اثر اقمنا لذكرهم ؟ . . .

لقد جمعنا مؤلفاتهم وطبعناها ؟ . . هذا لا شيء ! لقد رثيناهم وبكيناهم ؟ هذا لا شيء ! لقد نعتهم الصحف ونظمت لهم التآبين ؟ . . هذا لا شيء .

كل هذا لا يفيد ولا يأتي بالمطلوب لان تلك الكتب التي طُبعت والتآبين التي نُظمت لا تقرأها الا الطبقة الراقية . واما ابناء الشعب الذين افنى هؤلاء الكتبة حياتهم لينيروا ظلمات عقولهم فلا يعرفون منها شيئاً

لا يعرفون ان اديب بك اسحق مثلاً سُجن وتحمّل مشقّات الاسر لاجلهم . لا يعرفون أن الشيخ نجيب الحدّاد مات فقيراً لا يملك ما يتبلغ به لاجلهم . لا يعرفون ان « النسر

الصغير» افنى حياته لاجلهم . فيجب ان نقيم لهم التماثيل في الشوارع والطرقات حتى اذا مرّ ابن الشعب من امامها وابصر احد هؤلاء واقفاً وهو ماسك قلمه بيده يسأل عن تاريخ حياته فيعلم انه قضى شهيداً في سبيل خدمته ويعمل على تكريمه واحياء ذكره

اقيموا التماثيل ياقوم للادباء والاّ فالافضل ان لا تفكروا بمن يموت منهم وان يطفئوا الشعلة التي تتقد في نفوسهم لخدمة الامة . ويتعاطوا مهنة تعود عليهم بالربح

ولكن مهلاً ايها القلم ولا تتسرع في الكتابة فالبلاد الآن في حالة فقيرة لا تقدر معها على بذلِ اموالٍ طائلة . هي كالطفل الرضيع فحرامٌ ان نمنع عنه الغذاء لئلا يموت ولكن حوّل انظار ابناء المهجر الى هذا الامر وقل لهم « ان اقامة التماثيل هي من الوسائل الرئيسية لترقية الامة وتقوية عواطفها وحماستها لان القدوة الحسنة واجبة على كل انسان . قل لهم ذلك وحرّك عواطفهم الرقيقة لانشاء جمعية تجمع الاكتتابات وتمثل

الروايات . احياءً لذكر من قضى من شهداآء الادب . وتعمل على اقامة التماثيل لهم

وان جاءك ايها القلم ما ينبيء بخذلان مطاليبك
في المهجر . انكسر عندئذٍ وقل : على
الكتابة واهلها الف سلام

تنهدات ألمر

نهضتُ من رقادي وجلستُ الى مكتبتي . وشرعت اقرأ واكتب .

قبل ان اشاهد نور الشمس واحيي سلطانة النهار واسمعُ زقزقة العصافير عمدت الى كتابي . الى الاستاذ الذي قال فيه احد علماء الانكليز : انه يعلمنا بدون اجرة ولا مكافأة . نأتيه انّى شئنا فلا نجده نائمًا ونستفهمه ونسائله عمَّا تُهمنا معرفته فلا يضنُّ بما عنده ولا يخفيه عنا .

عمدت اليه وحييته ففتح لي قلبه واخذ يُلقي عليَّ من نصائحه ما لا انساه

والامثولة التي تلقنتهـا اليوم اثرت فيَّ تأثيرًا شديدًا وابكتني حزنًا على حالة وطني التعس

قرأت عن البلاد المتمدنة يا اخي وكيف يعامل فيها رجال الاصلاح من التجلة والاكرام

قرأت عن حملة الاقلام كيف يجدون عند الامم الراقية ما يستحقونه من الاعتبار وقابلتُ بعد ذلك بين حالتنا وحالتهم

هنا يُضطهد الكتَّاب ويُحتقرون . وهناك يُرفعون الى سماء المجد ويُكرمون

هنا يموتُ الاديب بعد ان يفني عمرهُ في التحبير والتحرير وليس لديه ما يسدُّ به رمقهُ . وهناك يموت الكاتب — الذي لم يؤلف الاّ كتاباً واحدًا او روايةً واحدة ويترك ثروة تعدُّ بالالوف (١) . هنـا يُعيرُ العلماء بالعلم . وهناك تُحنى لهـم

(١) قرأت في احدى الجرائد الباريسية ان مدير جريدة المصوّر (L'Illustration) هناك دفع لبلبل شعراء فرنسا ادمون روستان E. Rostand مليون فرنك ليسمح له بنشر روايتـه « شانتكلير » على صفحات جريدته . فيا لله !!

الرؤوس وتقام لهم التماثيل

قابلتُ هذه المقابلة فتساقط من عيني دمعة الشفقة على امتي وشعبي . لان الامة التي تدفن علماءَها وهم احياء هي ميتة والشعب الذي لا يعامل قواده بما يستحقونه من الاعتبار هو شعب خامل

فيا حبذا لو يتألف في الوطن او في المهجر جمعية تعمل لاحياء ذكر من مات من الادباء

ولكن من يسمع ؟ او من يجيب !! ..

على الصخرة

هناك حيث كنت اجلس مع الحبيب جلستُ ذات مساء اناجي الطبيعة واغازلها وقد أخذت ملكة السماء ترسل الى الارض نظرات الوداع . جلستُ وفي يدي كتابٌ يبحث عن المرأة الشرقية — عن الزهرة التي اذبلتها العادات العقيمة وانزلتها الى الحضيض — وفكري يطوف في عالم الخيال . ونفسي تتألم من الهيئة الاجتماعية ومظالمها

أخذ الليل يرخي سدوله والظلام يتكاثف طبقات فوق طبقات وانا غارق في بحر التأملات لا أسمع سوى حفيف الاشجار وتغريد الطيور التي أحبت ان تؤاسيني في

انفرادي وتخفف من عذابي ولكن عبثًا لاني كنت حزينًا حتى الموت

وبينا انا على هذه الحال اتأمل بهذا الكون وبجور الانسان على اخيه الانسان طرق سمعي وقع اقدام خفيفة عقبه تنهدات خارجة من اعماق قلبٍ جريح فأخذني الخوف وحبستُ انفاسي لاتحقق ذلك الصوت الذي لا يزال صداه يرنُّ في أذني ثم تقدمت خطوتين الى الامام فرأيتُ فتاةً في ربيع العمر قد خطَّ الدهر على جبينها الاسمر المتجعد اسطر البؤس والشقاء وكساها الفقر بثياب بالية تكاد لا تقيها برد الليل

رأَيتها على تلك الحالة وهي تبكي بكاءً مرًّا فذرفت لاجلها دمعة الاشفاق ولم اتمالك نفسي عند رؤيتها حتى سألتها وانا مدفوع بعامل التأثر : من انتِ يا هذه ؟ والى اين تسيرين في هذا الظلام الحالك ؟ . . .

فذُعرت تلك المخلوقة اللطيفة عند استماع هذا الصوت

ولكنها آنست بعد هنيهة عندما شعرت بكلامي الممزوج بنغمة حزينة واجابتني قائلة

انا فتاة قروية . نشأت بين الزهور والحقول وربيتُ بين النعاج والحملان

تركتني والدتي ولم ابلغ الثالثة من عمري . وهجرني اخواي الى البلاد الاميركية طلبًا للرزق فبقيتُ وحيدةً فريدةً لا صديق لي ولا مواسٍ غير ابي الشيخ وابن جارنا الذي كان يساعدني برعاية الخراف . غير اني ويا للاسف لم اكد ابلغ العاشرة من سني حياتي حتى فوجئتُ بخبرٍ وقع على قلبي كالسهام وهو — وضع الحجاب وترك القرية —

ويالله . . . كيف اهجر تلك الاماكن الجميلة التي فيها ابصرتُ نور الحياة وتحت سمائها اللطيفة قضيتُ اوقات الصبا مع حبيبي ابن جارنا ؟ ام كيف أضعُ تلك الخرقة السوداء على وجهي ؟ . . . كيف اتركك يا حبيبي وابتعد عنك وانت لم تجنِ ذنبًا ؟ . أمن العدل يا الهي ان اقضي على ذلك القلب

الطاهر واعذّبه بالفراق ؟ . ان ذلك لا يكون ولو لاقيت الموت في سبيله . . ان ابي لم يحملني على وضع الحجاب وترك القرية الا لانه عرف بحبي . . . وهو لا يريد ان احب . غير اني رفضت طلبه بكل اسف فطردني من البيت ولعنني وهو لا يزال يتبعني حتى يقضي عليّ

ومن ذلك الحين تركتُ اهلي وهمت على وجهي في البراري وانا لا اذوق راحةً ولا اعرف نوماً . لقد تعبت عيني من السهر فأَصبحت لا أُشاهد سوى اشباح مرعبة هائلة يرتجف لها قلبي خوفًا وهلعاً .

أَبي شاهر مديته وانا راكعة امام قدميه ابللها بالدموع وأَسأَله المغفرة فلا يرقّ لي بل يطعنني في قلبي لانني بشرعه قد اخطأتُ ضد الدين – وخير ان اموت من ان اكون كافرة – بحبي ورفض الحجاب . . وحبيبي يبكي على ضريحي و يناديني من اعماق قلبه فييأس اذ لا يسمع جوابًا و ينتحر هربًا من الحياة . امي – آه يا أُمّاه – تستصرخ العدالة وتطلب الانتقام واختي الصغيرة تسأل عني . . . وتقول مسكينة انتِ يا أُختاه

اين انتِ الآن ؟

آه ما امرّكِ ايتها الاشباح ! .

وما اتمت هذا الكلام الذي كانت تقاطعه بالبكاء والتنهد حتى سُمعَ حركة بجانبنا . فظنت تلك الفتــاة التعسة ان والدها يتعقبها . . . فرمتني بنظرةٍ دخلت الى اعماق قلبي وهرولت بين الصخور وسارت الى حيث لا ادري

عندئذٍ شعرت كأن روحي كادت تخرج من جسدي حزنًا واسىً على هذا المشهد الهائل اذ تمثلت امــامي تلك الجريمة الفظيعة التي يرتكبها الآباء نحو ابنائهم فيمنعونهم عــن الحب ويخنقون عواطفهم كأن الحب اثم لا يغتفر

فايُّ ذنب يا ترى اقترفته تلك المسكينة اذا كان قد خلق فيها قلب يحب حتى تعامل تلك المعاملة البربرية ؟ . . . اتعاند الخالق في امور الكون وهي ليست الاَّ بشرًا ؟

بل ايُّ خطيئة ارتكبتها تلك المخلوقة اللطيفة حتى يحجبَ وجهها عن اعين الناس ؟ أليس حرامٌ ان تُظلم وهي ادعى الى الشفقة من الظلم ؟ أيُحجر على زنبقةٍ طاهرة ويمنع عنها النور

[illegible]

لانها مظلومة بهذا الحجاب المنسدل على وجهها وانزل في قلوب الخلق عاطفة العدالة حتى يعلموا ان الرفق بالمرأة واجب على كل انسان . وان التحجب ظلمٌ وعدوان

***

وبينا انا على هذه الحالة سابحٌ في بحار التأمل والدموع
قد بللت الكتاب الذي كان بيدي صاح الديك للصبحة
الثانية فاستفقت من غفلتي وعدتُ الى المدينة
وانا اردد قولي : اذا لم تحرروا المرأة يا ابناء
الشرق من القيود الثقيلة التي تغل عنقها
فالحياة التي تئنون من وقرها الآن
تبقى على حالتها الحاضرة
الى الابد

كلمة الريحاني

ايها القارىء العزيز

لقد انتهينا من هذه السياحة التي ربما اتعبتك فلنسترح قليلًا . وقبل ان نفترق هات يدك لاصافحك مصافحة اخاء . واصغِ اليَّ لالقي عليك الزاد الاخير واسمعك الكلمة الجميلة التي كتبها ناسك الفريكة عن الضحايا فهي خير ما اختمُ به هذا الكتاب . قال اعزَّه الله

اخي ندرة

في كتابك روح سامية مع جمالٍ ما ظهر منها ما خفي اجمل مما ظهر . فعسى ان يوفقك الزمان الى اظهار ما هو كامن فيك . بمظهرٍ يليقُ بمثل عواطفك ومباديك

صديقك

بيروت ١١ ايار سنة ٩١٠ امين الريحاني

فهرست الكتاب

صفحة

المقدمة

٢٠ ياسمين القروية

٣٢ الطفل اللقيط

٣٧ سوسن البائسة

٤٥ جرح عميق

٥٢ وردة الناسكة

٧٠ شهيدة الهيئة الاجتماعية

٧٧ الزنبقة الذابلة

٨٢ على فراش الاحتضار

٩٣ شهداء الادب

١٠٢ على الصخرة

١١٠ كلمة الريحاني

وقـع اثناء الطبع بعض الاغلاط الطفيفة التي لا تخفى على القاريء الاديب فلهذا لم نعانِ وضع فهرس لها لظهورها . فنرجو من القرآء المعذرة